

بين الوسيلة والغاية

obeikandi.com

بين الوسيلة والغاية

المنطلقات الأساسية في تكوين الإيمان هي المعرفة العقلية في المرحلة الأولى؛ لأنها تبنى على الاعتقاد الفكري ثم تتحقق هذه المنطلقات في سلوك الأسس التربوية الروحية لتكامل المعرفة لدى المؤمن، وإن المسلمين قد أخطأوا في تقييمهم للغاية والوسيلة، فمنهم من جعل الغاية هي السلوك الصوفي، وذلك بسبب الإشراقات الروحية التي مارسوها وعاشوا فيها ولم يتجاوزوها إلى الهدف وهو العبودية، وهو الغاية من وجود المسلم ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) وتحديد الهدف، ومعرفة الوسيلة ثم الالتزام بالشريعة أي الكتاب والسنة كضوابط في تحديد الهدف، ومعرفة الوسائل تجعل التربية الروحية وسيلة لا غاية؛ وهذا ما أخطأ فيه الصوفيون، فالتصوف، والتربية الروحية القرآنية، هي وسيلة معينة لممارسة المعرفة الذوقية وشحن طاقات الإنسان ليقوم بالعبادات بسهولة ويسر وإتقان واستمرار. والصوفيون على مر العصور الإسلامية أصابهم شيء من الذهول والزهد والبعد عن الحياة عند بوارق الكشف، فاكثفوا بلذاتهم الروحية، وصفاء الخلوة، ورقة التبتل، ولو جعلوا هذه هي الوسيلة لما اعترى الإسلام الضعف من جراء خواء الحضارة في حالة تزايد هؤلاء الروحانيين الذين

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

كانوا يستطيعون تحقيق تكامل الإسلام في أنفسهم لو جعلوا موازنة دقيقة بين الهدف والوسيلة ، وعملوا ضمن الوسيلة بضوابط الشريعة لتحقيق الهدف ، لكنهم استمروا في الوسيلة ونسوا الغاية التي وضعت من أجلها هذه الوسائل الروحية التربوية .

فالصوفيون في إنتهاجهم الأسلوب الخاص وعدم تعويل بعضهم على الكتاب والسنة ، وما أصاب البعض من انحرافات روحية وانغماس في الملذات الروحية ، كانوا سبباً في فهم الإسلام فهماً جزئياً ، فتركوا الحضارة ولم يسهموا فيها ، علماً أنهم لو سخرروا الطاقات الروحية التي ملكوها بانتهاج فكر إسلامي متكامل ، فلم ينسوا الناحية العسكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، لأخذوا بيد الأمة إلى أرقى الحضارات ولسادوا العالم وحطموا الظلم الاجتماعي .

ومن هنا نستطيع القول بأن التربية الروحية في القرآن هي تربية لغاية ، وعمل لهدف ، وأسلوب يحقق المسلم به المجتمع الإسلامي السليم المتكامل .

والمسلمون الأوائل احتوتوا التربية القرآنية فكوتوا حضارة وفتحوا البلاد وعم الإسلام وشمل الأمن العالم .

وعندما قصر فهم بعض العلماء على جانب واحد من الإسلام وهو التربية الروحية ، وتركوا جوانب الحضارة الإنسانية بكل جوانبها ، انعزلوا عن الشعوب ، وحطموا الحضارة الإسلامية ، حتى هزمت من المغول والتر ثم من الصليبيين ثم الاستعمار الحديث ، فالتربية الروحية القرآنية تربية كاملة الوسيلة ، كاملة الهدف ، لا يطفى عليها جانب دون جانب ، وهذا ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولربما يقول بعض الناس : ظهرت التربية الصوفية كرد فعل لامتداد الجانب المادي وطغيانه على الجانب

الروحي، وهنا نقول: إذا كان الانعطاف شديداً نحو المادة فعلينا بالتوازن لا بالانعطاف الشديد نحو الروح، فالتوازن والتكامل والشمول هي خصائص حضارتنا الإسلامية، فالمسلم الذي يعيش في لذة روحية ويترك جميع المسلمين يتضورون جوعاً، ويستعمرون، ويُذَلون فهو مسلم أناني لم يفهم قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١)، وقول رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»^(٢).

فالمسلم الذي اكتفى بالتربية الروحية، وعاش لذة روحية وزاد في سبحاته الروحية حتى صار روحاً محضاً، يكون قد حطم عرى المجتمع الذي ينتمي إليه وهو الإيثار والتعاون والخير، وإنما عليه أن يعمل ضمن الوسيلة ليحقق الهدف، لا أن يستمر في الوسيلة وينسى هدف التربية الروحية في ترويض النفس لاستقبال الأوامر الإلهية بسهولة ويسر ورضا وجور.

والتربية الروحية في حالتها المعتدلة هي المطلوبة شرعاً، وأما الزيادة فيها والانغماس في لذاتها، والتخبط في أغوارها، يجعل المجتمع مجتمعاً رهبانياً لا يصلح لبناء حضارة تقارع الحضارات المادية التي تعمل لتقويض الحضارة الإسلامية، وهنا نجد قول الرسول ﷺ عندما شاهد أناساً وسمع عنهم أنهم تعاهدوا على أمور فيها طغيان الروح على المادة فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وأما الثاني فقال: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وأما الثالث فقال: وأما أنا فأعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، والرابع قال: وأما أنا فلن أكل اللحم. هذا شذوذ اجتماعي يحطم بنيان الأمة، فوقف رسول الله ﷺ

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ٧، ورواه مسلم في كتاب الإيمان حديث: ٧٢، ٧١.

(٢) رواه الطبراني والبخاري بإسناد حسن.

على المنبر وقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، والله إني لأخشاكم الله، وأتقاكم له، ولكنني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

هذه الشخصية الإسلامية المتوازنة، روح ومادة، فكر واجتماع، توازن في التربية الروحية والفكرية والاجتماعية، لا طغيان في جانب على جانب، وفي هذا السبيل يتقول بعض المتصوفة قائلين: لا نطيق إلا أن نستمر بهذه الأشواق الروحية، ويقولون أقوالاً لم يقلها النبي ﷺ ولا الصحابة رضوان الله عليهم.

فهل وصلوا إلى قمة الروح فصاروا في مرتبة أعلى من أصحاب محمد عليه السلام، أو بلغوا شأواً أقوى روحاً من نبيهم الكريم؟

هذا إفك وزور، فلقد بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام قاب قوسين أو أدنى، وعرج به إلى السموات العلى، وكان له لقاءات مع روح القدس، وبلغت به شفافية الروح درجة لم يصل إليها نبي قبله ولا عارف بعده.

فصَبَّطَ لسانه وخاطب الناس بما يدركون، وترك الأمور الروحية الخاصة جانباً، ولم يجعلها هدفاً بل حقق من خلالها نفساً طاهرة صافية عظيمة.

وإن دور العارفين بالله هو في قوة روحية ذاتية تربوية يستطيعون من خلالها تربية الأجيال والسمو بها إلى الروح المزكاة لتأخذ دورها في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية المتكاملة.

وهنا نجد أمثلة في تاريخ رجال التصوف أمثال الجنيد والغزالي وغيرهما؛ ممن كتموا ما عايشوه في أشواقهم وإشراقاتهم، ولم يتكلموا شططاً من

(١) البخاري ١٠٤/٩، ومسلم ١٠٢٠/٣.

القول؛ احتفظوا بكل ذلك لأنفسهم أو للخواص من تلاميذهم، وأوصوهم بعدم الخوض في هذا المجال لأنه وسيلة لا غاية، والهدف إمكانية امتلاك الإرادة في العبادات، وقوة التأثير في العباد، وتحويل هذه الطاقة إلى أعمال فاضلة تصلح المجتمع وتبنيه بناء أخلاقياً تربوياً روحياً سامياً، وبناءً حياتياً قوياً متقدماً.

وأما بعض المتصوفين الذين عاشوا في إشراقاتهم وفضحوا أنفسهم وقالوا ما لم يقل أحد من الصحابة الكرام فلا يقبل قولهم المخالف، إن صح النسب في ذلك إليهم. فقد أخطأ من نقل عنهم ذلك القول وتلك الكلمات التي لا تحقق هدفاً ولا تبني غاية، ولا ترسي قواعد بناء فرد ومجتمع سليم. والتربية الروحية القرآنية المتوازنة المتكاملة هي المعين الصافي الذي يجب أن نبرجه لتشييد المجتمع الإسلامي الصحيح، فالإسلام عبادة، ومعاملة، وحضارة، وإنسانية، واقتصاد واجتماع، وغير ذلك، فإن قَصَرْنَا الإسلام على ناحية واحدة من هذا نكون قد قدمنا جزءاً واحداً من أجزاء متكاملة يظهر فيها جمال الإسلام وتظهر عظمته، فالإسلام كل لا يتجزأ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١)، وما نجده في المجتمعات البشرية الإسلامية في عالمنا من الخزي والضعف والفقر والمرض والذل والهوان كله حدث عندما تركنا جوانب من الإسلام، وتمسكنا بجوانب أخرى؛ تمسكنا بالقشور وتركنا اللباب، تمسكنا بالصور ولم نتمسك بالحقائق، فالإسلام كل لا يتجزأ صورة وحقيقة، مادة وروح، عبادة ومعاملة، سياسة واقتصاد، قوة ورحمة، كل ذلك جوانب هامة من جوانب الإسلام العظيم.

(١) سورة البقرة: ٨٥.

obeikandi.com

القلب في القرآن

obeikandi.com

القلب في القرآن

ترددت الآيات الكثيرة التي تركّز على التربية الروحية معتنية بالقلب الذي هو مناط المسؤولية الروحية، وعلينا أن نتبين ماهيته، وأنواعه، وأهميته، والآيات التي ذكرته، ومكانته في التربية الروحية القرآنية.

الآيات القرآنية التي ذكرت القلب بكل أنواعه:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

[سورة الحج: ٤٦]

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾

[سورة الحديد: ١٦]

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ٢٢٥]

﴿ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

[سورة الأحزاب: ٥]

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

[سورة الحجرات: ١٤]

﴿ وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾

[سورة البقرة: ٢٠٤]

- ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾

[سورة آل عمران: ١٦٧]

- ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ هَمًّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ

[سورة المائدة: ٤١]

فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: ٨]

- ﴿ وَتَأْنِي قُلُوبُهُمْ ﴾

[سورة التوبة: ٦٤]

- ﴿ نُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

- ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ

الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ

نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا

[سورة التوبة: ٧٥-٧٧]

يَكْذِبُونَ ﴾

[سورة البقرة: ١٠]

- ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾

[سورة المائدة: ٥٢]

- ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾

[سورة الأنفال: ٤٩]

- ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾

[سورة النور: ٥٠]

- ﴿ أَلَمْ يَأْتِ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾

[سورة محمد: ٢٤]

- ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَي قُلُوبِ أَقْفَالُهَا ﴾

[سورة البقرة: ٧]

- ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

[سورة الشورى: ٢٤]

- ﴿ يَخْتَمُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾

[سورة الأنعام: ٤٦]

- ﴿ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾

[سورة الجاثية: ٢٣]

- ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ ﴾

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ﴾
[سورة النحل: ١٠٨]

- ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾
[سورة الأنعام: ١٢٥]

- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾
[سورة البقرة: ٨٨]

- ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾
[سورة النساء: ١٥٥]

- ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾
[سورة الأعراف: ١٠٠]

- ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾
[سورة الروم: ٥٩]

- ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَدَبِّرِينَ﴾
[سورة يونس: ٧٤]

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾
[سورة محمد: ١٦]

- ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾
[سورة التوبة: ٨٧]

- ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
[سورة التوبة: ٩٣]

- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾
[سورة الإسراء: ٤٦]

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾
[سورة الكهف: ٥٧]

- ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
[سورة المطففين: ١٤]

- ﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾
[سورة محمد: ٢٤]

- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَقٍ﴾
[سورة المؤمنون: ٦٣]

- ﴿فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾
[سورة المنافقون: ٣]

- ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾
[سورة الأعراف: ١٧٩]

- ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: ٣٥]

- ﴿قُلُوبُهُمْ مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل: ٢٢]

- ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٧]

- ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة البقرة: ١١٨]

- ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٤]

- ﴿فَإِنَّهُمْ نَرَأُهُمْ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٩٧]

- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِدَلِيلٍ لِّمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [سورة ق: ٣٧]

- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [سورة الأحزاب: ٤]

- ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٣]

- ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الزمر: ٢٢]

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الحج: ٥٢-٥٤]

- ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الأنعام: ٤٣]

- ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [سورة المائدة: ١٣]

- ﴿وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٢]

- ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾

[سورة الحج : ٣٥]

- ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾

[سورة المؤمنون : ٦٠]

- ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾

[سورة النازعات : ٨]

- ﴿إِذَا الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ﴾

[سورة غافر : ١٨]

- ﴿وَيَلْغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾

[سورة الأحزاب : ١٠]

- ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾

[سورة الأنفال : ١٢]

- ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾

[سورة آل عمران : ١٥١]

- ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ﴾

[سورة الأحزاب : ٢٦]

- ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ﴾

[سورة الحشر : ٢]

- ﴿وَيَذْهَبُ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ﴾

[سورة التوبة : ١٥]

- ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ فِي قُلُوبِهِمْ﴾

[سورة آل عمران : ١٥٦]

- ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

[سورة الزمر : ٤٥]

- ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾

[سورة الأنفال : ٢٤]

- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾

[سورة الرعد : ٢٨]

- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٦﴾ إِذْ يُغَشِّبُكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

﴿ يُطَهِّرْكُمْ بِهِ وَيُدْهِبْ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَيُرْبِطْ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾
[سورة الأنفال: ١٠-١١]

[سورة النحل: ١٠٦]

- ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

[سورة الكهف: ١٤]

- ﴿ وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

[سورة الفتح: ١٨]

- ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

[سورة الفتح: ٤]

- ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

- ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

[سورة آل عمران: ١٥٤]

- ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

[سورة آل عمران: ١٥٤]

- ﴿ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾

[سورة الحجرات: ٣]

- ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾

[سورة ق: ٢٣]

- ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الصافات: ٨٤]

- ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الشعراء: ٨٩]

- ﴿ ذَلِكَ كَمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ ﴾

[سورة الأحزاب: ٥٣]

- ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

[سورة الحجرات: ٧]

- ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾

[سورة المجادلة: ٢٢]

- ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

[سورة الحج: ٣٢]

- ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾

[سورة التغابن: ١١]

- ﴿ وَأَرْزَقْتَهُمْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

[سورة التوبة: ٤٥]

﴿ رَبِيَّةٌ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: ١١٠]

﴿ وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

[سورة الفتح: ١٢]

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾

[سورة آل عمران: ٧]

﴿ وَلَا يُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾

[سورة الكهف: ٢٨]

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾

[سورة الأنبياء: ٣]

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾

[سورة البقرة: ٩٣]

﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾

[سورة البقرة: ٩٣]

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾

[سورة الفتح: ٢٦]

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾

[سورة الحشر: ١٤]

﴿ وَأَشَدُّدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

[سورة يونس: ٨٨]

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

[سورة النساء: ٦٣]

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب: ٥١]

﴿ وَلَكِنْ يُطِيعَنَّ قَلْبِي ﴾

[سورة البقرة: ٢٦٠]

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا ﴾

[سورة آل عمران: ٨]

ثم إننا لنجد آيات القرآن الكريم تذكر وتكرر كلمة الفؤاد، ونجد (١٥) آية فيها لفظ الفؤاد، وهي كلمة مرادفة لمعنى القلب.

كما نجد آيات ذكرت الصدر وعددها مائة وإحدى وأربعون آية.

معنى القلب :

فلو أردنا الغوص في تحليل معنى القلب في كل آية لما وسعنا هذا البحث ولاضطررنا لكتابة مجلد خاص حول القلب بذكر ماهيته، ومكانته في القرآن الكريم، والأمراض التي تطرأ عليه، وسنين أقسام القلوب وأنواعها.

ماهيته :

جوهر نوراني مجرد يتوسط بين الروح والنفس وهو الذي تتحقق فيه الإنسانية، ويسميه الحكماء النفس الناطقة، والروح الباطنة، والنفس الحيوانية هي المتوسطة بينه وبين الجسد.

أقسام القلب هي :

القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح.

١- القلب الأجرد: فقلب المؤمن سراج فيه نور، أي أجرد عن الصفات الذميمة، لا حقد فيه، ولا غش ولا مكر ولا حسد.

٢- وأما القلب الأغلف: أي مختوم عليه، وهو قلب الكافر.

٣- وأما القلب المنكوس: فهو قلب المنافق، عرف ثم انتكس.

٤- وأما القلب المصفح: فقلب فيه إيمان ونفاق.

القلب : مضغعة من الفؤاد معلقة بالنياط

والقلب ليس المنوط به مضغعة الدم، وإنما هو الذي تتمركز فيه الجوانب العاطفية في الإنسان، وتتمثل فيه المشاعر الوجدانية من حب وكره،

وشجاعة وخوف، وألم وفرح، ولين وقسوة، وسعادة وشقاء، والهداية والضلال، والاستقامة والزيف، وتلقي الوحي والتذكر والتفهم والتدبر، و«القلب في القرآن عالم قائم بذاته، اتسعت معانيه وتعددت جوانبه».

والقرآن يحوي على مئة وعشرين آية من آيات القلب، وهذه الآيات الكثيرة تدعونا للاهتمام بالجانب القلبي في التربية الروحية، فهل يمكن أن نتناسى هذه الآيات أو نهملها ونحن مأمورون أن نفكر وندرس كل آية من آيات القرآن، وعندما نسمع قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١).

تدعونا هذه الآية إلى معرفة طرق العماية، وطرق الإبصار، ففي الحياة رؤية عينية ورؤية قلبية مبصرة؛ وهي التي تضيء النفس بنور الإيمان، فيرى الكون بعين البصيرة لا بعين البصر، وهي القلب، «فجميع عظماء الرجال وهبهم الله بصيرة، فهم يعرفون دون تحليل أو تفكير الأشياء الهامة التي يجب عليهم أن يعرفوها»^(٢).

وجاءت هذه الكلمة واضحة في كتاب الله عز وجل بقوله: ﴿يَلِ الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾﴾^(٣)، فالقلب المبصر هو المؤشر الحقيقي لتحريك العقل والحواس في إرادة الخير والصواب والبعد عن الشر والخطأ، فالقلب هو جوهر الإنسان، والقرآن اهتم اهتماماً واسعاً بالقلب، وجعله مناط المسؤولية ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾، فالمهم هو القلب وما يحتويه؛ لا ما يظهر على السطح من أقوال مغايرة للقلب. وكان حذر

(١) سورة الحج: ٤٦.

(٢) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كارليل ص ١٤٥.

(٣) سورة القيامة: ١٤-١٥.

المنافقين كما نبأ القرآن من كشف ما تحويه قلوبهم، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرْتُمْ اللَّهَ تَخْرُجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (١).

وبين أن القلب تعتره أمور كثيرة ومنها المرض ﴿في قلوبهم مرض﴾، ولا شك أن المرض متعدد الحالات؛ فمرض كبير وهو النفاق؛ وهو أشد مرض من أمراض القلب، وجميع المنافقين يصابون بهذا المرض الخطير، ثم تصل بالمنافقين إلى الطبع والإفقال، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢)، ثم يذكر بعد الطبع الألفة والإفقال والختم؛ وهذا تأكيد قرآني على أهمية القلب في الإنسان المسلم خاصة ليتحرى دقائقه وخفاياه ومرضه، فلا يقع في محذور، فالقرآن يهدد: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ﴾ (٣).

ثم نجد تفصيلاً أكثر في وصف الإنسان الذي أهمل قلبه ذا البصيرة، واتخذ إلهه هواه فأضله الله على علم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشْرَةَ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٤).

فالإهمال المستمر لهذا الجانب الخطير في الإنسان يؤدي إلى نهاية خطيرة لا تجديه موعظة بعدها، ولا يلتفت إلى أمر أو نهي لأنه قد وصل إلى نهاية مؤلمة وهي: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ

(١) سورة التوبة: ٦٤.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة الأنعام: ٤٦.

(٤) سورة الجاثية: ٢٣.

هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١١﴾. وهذه نهاية حتمية لمقدمات كثيرة فيها الإهمال والتسبب والنفاق والكفر.

﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٢).

ويتم الطبع والإقفال والختم على الذين لا يريدون معرفة الطرق المؤدية إلى الهداية ولا يعلمون وسائلها، ولا يسألون عنها بجهلهم ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)، ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤)، ثم استولى هذا الجحود على نفوسهم فحجبوا عن الله وصار على قلوبهم ران: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥)، وكذلك المسلمون إذا غفلوا عن ربهم، ولم يستغفروا أظلم القلب، وتغلف بغمرة الظلمة والآثام، قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ﴾ (١٦)، فهؤلاء قرنهم القرآن بالأنعام، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧)، فالقلب الذي علته الغفلة، وتربعت على عرشه المعصية، وعشعشت في جوانبه محبة الدنيا والانغماس بها يظهر على سطح العمل سلوكاً غير مبصر، وسمعاً مشوهاً وكل ذلك من الغفلة المتحكمة بالمسلم، الذي لم ينتقل إلى الإيمان القلبي والتربية الروحية القرآنية المتكاملة.

والقرآن الكريم يرتفع بالقلب فيجعله موطناً للوحي، ومهبطاً للتنزيل

(١) سورة النحل: ١٠٨.

(٢) الأعراف: ١٠٠.

(٣) سورة الروم: ٥٩.

(٤) سورة يونس: ٧٤.

(٥) سورة المطففين: ١٤.

(٦) سورة المؤمنون: ٦٣.

(٧) سورة الأعراف: ١٧٩.

وبه يحتل أعلى مراتب المعرفة الإلهية: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾، ثم يكرر ليؤكد مكانة القلب: ﴿فإنه نزله على قلبك﴾، فالقلب هو وعاء الرسالة الإلهية، ولذا دعاه ليتذكر وليتأمل وليتفكر: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ ولا بد لهذا القلب الواحد أن يتجه اتجاهها واحداً، فإما أن يتجه إلى خالقه أو إلى مجريات أخرى تستولي عليه فكراً وتذكراً وعبرة وتأملاً، ولذا جاء في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ فلا بد لهذا القلب أن يعتنى به العناية التي يستحقها، وإذا سما القلب إلى مدارك الصفاء ألف القلوب الصافية ﴿وألف بين قلوبهم﴾.

ويؤكد لهذا القلب أن يستمر بصفاته لتنجلي منه أسباب الغل ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وتتكامل آثار القلب اجتماعياً ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة﴾ وروحياً ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢).

وأما علامة الغفلة فهي القسوة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَزْشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٣).

ثم ينذر ويتوعد ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ ويصف المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ﴾^(٤).

ثم يتدرج في كمالات المؤمنين فيصفهم ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَيْعٌ وَلَا بَعْزٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٥).

(١) سورة الحشر: ١٠.

(٢) سورة الحديد: ١٦.

(٣) سورة البقرة: ٧٤.

(٤) سورة الأنفال: ٢.

(٥) سورة النور: ٣٧.

فهؤلاء صنف حصلوا على القلب القرآني النابض بالذكر، المتحول إلى قدرات وإرادات عملية؛ ولكنهم في صحوة مستمرة خائفين وجلين من العودة إلى ما كانوا عليه من غفلة مما صاروا إليه من إيمان وبصيرة، فهم يدأبون محافظين على قلب خاشع، ونفس طاهرة مزكاة، وروح سامية في كمالات المعرفة. ثم أتبع ذلك بنداء مبين واضح بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهُهُ تُحْشَرُونَ﴾ (١).

وهذا النداء الإلهي للمؤمنين فيه إيضاح وتبيان للذين استجابوا لأمر ربهم ورسالة نبيهم فأحيا الله قلوبهم، فتملكوا القلب المبصر، ثم يهددهم إن لم يستجيبوا ويستمروا على الاستجابة لله وللرسول بالحلولة بينهم وبين ما وصلوا إليه من قلب ذاكر خاشع مجيب منيب.

ولكي يستمر القلب في حالة طمأنينة لما وصل إليه فلا بد له من غذاء مستمر، وقوة دافعة للبقاء على حالته ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢).

ولابد للمؤمن من الاستمرار بالمجاهدات حتى يحصل على التثبيت والربط ﴿وليربط على قلوبكم﴾ ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ وإذا ما حصل المؤمن على هذه المراتب ورضي الله عنه وعلم ما في قلبه من إيمان وحب وذكر وصفاء، فإنه ينزل السكينة عليه ويثبته بالفتح المبين والقريب ﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ (٣).

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

(٣) سورة الفتح: ١٨.

وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾^(١).

وإذا حصل المؤمن الذاكر على قلب مطمئن تبدأ مرحلة الامتحان والابتلاء الإلهي ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم ويمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ فإذا صدق الله وأخلص؛ وكان على درجة واعية من المعرفة؛ استمر في العروج والرقى حتى يلقي الله عز وجل، فيأتيه اليقين وهو على يقين شهودي وإيمان غيبي متمكن في القلب المطمئن وإلا حبط عمله فكان من الصاغرين.

وإذا ثبت على إيمانه، وصدق في يقينه حجب إليه الإيمان فتمالكت نفسه وتملكها الإيمان ثم زينه في قلبه ﴿ولكن الله حجب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ وتزيين القلب بتعظيم شعائر الله لتتجلى التقوى على سطح الالتزام سلوكاً ومحبة وهدى واتباعاً وأسوة.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٢).

وإن القلب الذي لم يقطع هذه الأشواط في معراج المعرفة فهو في مهبط الضياع؛ وقد ذكر الله أصنافاً من أمراض القلوب هي:

١- الريبة والشك: إنها أمراض تنتج من إهمال صاحبها ﴿وَأَرْقَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهَرَّتْ فِي رَبِّهِنَّ يَرْدُّونَ﴾^(٣).

٢- الظن السيء: وهو من دواعي الضعف الإيماني القلبي والعقلي

(١) سورة الفتح: ٤.

(٢) سورة الحج: ٣٢.

(٣) سورة التوبة: ٤٥.

﴿ وَظَنَّنتُمْ ظَنَّ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾^(١).

٣- زيغ القلوب: وهو علة القلوب التي لم تتعالج بمداومة ذكر الله عز وجل ولم تطهر ولم تخشع؛ وإنما بقيت على قسوتها ولا بد لها من أن تظهر سلوكاً ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾.

٤- غفلة القلب: وهي علة العلل؛ بل هي بداية الضياع ونهاية المطاف، فالغفلة بعد عن الله، وانغماس كلي في الظلمة، وضياع في مسارب الهوى، وتشرذم عن المنهج الإلهي ﴿وَلَا تُطِيعَنَّ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾^(٢).

٥- لهُو القلب: وهو الداء المستحکم في قلوب المسلمين ﴿لاهية قلوبهم﴾ يميل حيث يميل الهوى؛ فلا استقامة تروعه، ولا موعظة تحذره، ولا آيات تحرك فيه مكامن الخوف والحذر، فمن لها فلا قدرة تحفظه إلا إذا أقلع عن لهوه وعبثه وضياعه.

القلب ومكانته في السنة النبوية:

أكد الرسول ﷺ ارتباط صلاح أمر المؤمن بصلاح قلبه فقال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٣).

ولم يكتف بهذا وإنما جعله في موطن الواعظ المذكور فقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه»^(٤).

(١) سورة الفتح: ١٢.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

(٣) البخاري ١/ ص ٢٠.

(٤) الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة، وإسناده جيد.

إن دور القلب عند الرسول عليه الصلاة والسلام هو دور المحدث لأهميته فقال ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر»^(١).

ووضح مكان الإيمان وأشار إلى القلب، ومدح المؤمنين فقال: «الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي»^(٢).

وقال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مبراد كالكوز لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب هواه»^(٣).

وهذا هو القلب الذي كان يستعيذ منه الرسول ﷺ فيقول: «نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب»^(٤).

* * *

-
- (١) البخاري، كتاب الإيمان ٥/٤.
 - (٢) الترمذي: ص ٨٤.
 - (٣) رواه مسلم: ١٧٠/٢.
 - (٤) كتاب الترمذي: ص ٥١.

التربية الروحية
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

obeikandi.com

التربية الروحية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد بدأت إرهابات الدعوة عند الرسول ﷺ بأنه كان يرى في منامه، ثم يظهر كقلق الفجر حقيقة ثم حبيت إليه الخلوة، وصعد إلى غار حراء خلوة بربه، ترك الناس وأهله، حبيت إليه الخلوة الأشهر ذوات العدد حتى إن خديجة رضي الله عنها تستبطئه فترسل في طلبه للتأكد من صحته .

وماذا يوجد في الغار؟ ذكر الله عز وجل، صفاء للنفس، طهر للقلب، تجميع لطاقت النفس، مخالفة للهوى، تبطل وإنابة، حتى قال أهل مكة: «إن محمداً قد عشق ربه». نعم عشق ربه، لم يذكرنا لماذا كان يفعل في غار حراء؟! لم تبين كتب السيرة بالتفصيل لماذا كان يقول؟!؟

أليست هذه تربية روحية لرسول الله عليه الصلاة والسلام؟

(أليست هذه بدايات التصوف؟) أليست هذه يا أخي مدعاة للتساؤل؟

إلهام رباني، وإرادة خالصة وعناية إلهية واصطفاء رباني؟!؟

ثم تنزل آيات إقرأ، وتليها آيات ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ﴾ ﴿قِرَآئِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَضْفَعُهُ﴾
 أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٢﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ فَأَوْلًا قَلِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ
 نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وماذا يوجد في هذه الآيات ؟ .

أليست كلها تربية روحية ؟ صفاء وتهجد، ذكر وتبتل استعداد لحمل القول الثقيل، والدعوة الكبرى، وكأنها تقول له يا محمد كن على استعداد لحمل الأمانة الكبرى واصبر وتصبر، واجعل النفس في أعلى أشواقها لتتحمل نزول الوحي الإلهي، بما فيه من إشراقات روحانية، وأوامر ونواهٍ، وجلد في إيصال الدعوة إلى الناس .

وتبتل إليه تبتيلًا وهذا التبتل هو الانقطاع الكلي عن المادة وأدرانها . واذكر اسم ربك مقرونة مع التبتل لأنها أضخم وسيلة مساعدة لحصول التجليات الإلهية على القلب الطاهر المستعد الذي تجمعت قواه، وسما سمو الصفاء المقرون بالطلب لمعرفة الحقيقة الكلية . وهذه المرحلة استمرت ما يزيد عن ثلاث سنوات تربية روحية عالية، تهجد في الليل، وذكر وانقطاع ثم دعوة سرية، قيام نصف الليل أو ثلثي الليل مع طائفة من المؤمنين .

ثم علينا أن نبحث في الأحاديث التي حض فيها الرسول عليه الصلاة والسلام على هذه المعاني الروحانية في تزكية النفس .

* * *

(١) سورة المزمل: ٩١ .

الفرقة الروحية
عند الصحابة

obeikandi.com

التربية الروحية عن الصحابة

لقد تابع الصحابة رسولهم في مسيرته الإيمانية، وعاشوا حياة روحية شحذت همهم، وأرست قوة الإرادة عندهم. فتبدلت طباعهم وتغيرت نفوسهم، وتزكت أرواحهم. وبلغت ببعضهم الغلو في العبادة حتى وصلوا إلى درجة الصوم بدون إفطار، والصلاة دون نوم، والبعد عن النساء. فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى لقاء، ثم خطب فيهم ليهدىء من هذا الغلو ثم أوضح «وأما أنا فأصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

لقد تأججت أرواحهم بمحبة الله، فاستصغروا الدنيا أمام عظمة الله وثوابه فقدموا أنفسهم شهداء العقيدة، واسترخصوا الغالي فأنفقوا أموالهم وجاهدوا بكل ما يملكون وإننا لنجد ذروة التربية الروحية عند أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم مجسدة في سلوكهم وأقوالهم ووجدانهم، فانطلقوا بها فاتحين هداة مهديين.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان سباقاً إلى كل مكرمة يخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام عنه بأنه لم يسبقكم أبو بكر لا بكثرة صلاة ولا

(١) البخاري ج ٩ ص ١٠٤.

بكثرة صيام ولكن سبقكم (بشيء وقر في قلبه حب الله وحب رسوله) والحب نتاج التربية الروحية الصحيحة والسليمة وأما ذكرهم الله، فقد تناقلت كتب الحديث الكثير والكثير عن اجتماعهم في بيت الله وذكرهم الله، ويقر الرسول الكريم أعمالهم واجتماعهم؛ ثم إننا لنجد القوة الروحية عند عمر رضي الله عنه حين يخاطب سارية وهو على المنبر ويقول: (يا سارية الجبل). وهذه الحاسة السادسة التي ثبتت علمياً والتي تدل على تجمع الطاقة النفسية والروحية للتوجه إلى عمل بعيد.

وإن أهل الصفة وهم الفئة التي عاشت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وكانت تمثل التجمع للقاعدة المؤمنة التي أوتت إلى المدينة المنورة، ولم يكن لها القدرة على التعايش مع الظروف المادية للحياة فتفرغت للعبادة والجهاد. وإذا تصفحنا آيات التنزيل وجدنا ذكراً للصحابة بأنهم كانوا يشاركون الرسول في قيام الليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَيْكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافَةَ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (١).

واهتمام الرسول عليه الصلاة والسلام للصحابة الكرام بالعناية الروحية من ذكر وقيام الليل وصيام حتى في الأيام الشديدة الحر. كل ذلك أمدتهم بقدرة روحية عالية.

ونجد ذلك في أقوال الصحابة الكرام قال ابن عباس رضي الله عنهما (لم يفرض الله فريضة على عباده إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، وأمرهم بذكره في الأحوال كلها).

وقال علي رضي الله عنه: (الخير كله مجموع في أربعة: الصمت والنطق

(١) سورة المزمل: ٢٠.

والنظر والحركة، فكل نطق لا يكون في ذكر الله تعالى فهو لغو، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو، وكل نظر لا يكون في عبدة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد فهي فترة، فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبدة وحركته تعبداً ويسلم الناس من لسانه ويده»^(١).

وعن حارثة قال عنه رسول الله ﷺ: (من أراد أن ينظر إلى عبد نور الله تعالى قلبه بالإيمان فلينظر إلى حارثة).

وقصة حارثة التي تكلم فيها مع رسول الله ﷺ عندما سأله الرسول ﷺ «كيف أصبحت يا حارثة قال: أصبحت مؤمناً حقاً فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك قال: أصبحت كأني بعرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون، وإلى أهل النار يتعاوون قال: عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان»^(٢).

(وأما حنظلة) رضي الله عنه فإنه روي عنه أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأنها رأي العين، فعدت إلى أهلي فضحكت ولقيت الناس فقلت: نافق حنظلة فقال أبو بكر رضي الله عنه: مالك؟ فأخبرته، فقال: إنا لنفعله أيضاً، فذهب حنظلة إلى النبي عليه الصلاة والسلام فذكر له ذلك فقال: (يا حنظلة لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم) أو كما قال: (يا حنظلة ساعة وساعة)^(٣).

فالتربية الروحية عند الصحابة الكرام كانت عبادة متزنة، وحباً لله

(١) اللمع ص/ ١٨٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة حديث ١٢، ١٣.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب ٢٨.

ولرسوله عارماً، وسلوكاً طاهراً نقياً، وانطلاقاً شاخحاً نحو المعالي بثبات وقوة.

فأهل الصفة هم الفئة التي مثلت فكرة الزهد بكل أبعادها.

وقد تفرغوا للعبادة والجهاد والتعلم والصحة المستمرة لرسولهم الكريم عليه الصلاة والسلام، وكان منهم عبد الله بن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر الغفاري، وكثير ممن نقلوا لنا تراثاً نبوياً شاملاً نستقي منه سنة النبي ﷺ. وكان قد نقل عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم مكوثهم في المسجد واعتكافهم الطويل والتفاهم حول حلق الذكر، وثناء الرسول عليه الصلاة والسلام على هذا اللقاء، وهناك أحاديث كثيرة تفرهم على ذلك.

وكل الطرق الصوفية تستند في انطلاقتها الأولى إلى أحد الصحابة الكرام فالنقشبندية تبدأ حين تبدأ بذكر سلسلتها المشهورة بأبي بكر رضي الله عنه.

والقادرية والرفاعية تبدأ سلسلتها بذكر علي كرم الله وجهه. وهكذا نجد أن بذور التربية الروحية بدأت منذ عهد الصحابة الكرام وتطورت مناهجها وتفرعت طرقها، وتعمقت استنتاجاتها حتى غدت مدارس روحية لها بصماتها الواضحة في المدّ الروحي الإسلامي.

* * *

اصوفية السلفية
وإصوفية الفلسفية

obeikandi.com

إِصْوَافِ السَّلَفِيَّةِ وَإِصْوَافِ تَفَلُّسِيَّةِ

نشأ التصوف مع بداية السلف الصالح (على يد الحسن البصري) والتابعين، وكانت منطلقاته قرآنية نبوية إسلامية صافية، كل ذلك من خلال البدايات المادية التي عاشها المسلمون إزاء الحروب الدامية وبدأت المنازعات الداخلية، وانطلقت التحزبات، وانغمس الناس في المادة، وتزايدت الاهتمامات بالفقه والحديث والتفسير والفرائض والنحو والصرف والشعر، ونسي هؤلاء أن الإسلام علم وفكر وروح. جمعوا آيات الأحكام وأحاديث الأحكام وقصروا العلم على تلك الآيات، ونسوا أن القرآن كل لا يتجزأ. وإزاء هذا الصراع ظهرت فئة اهتمت بالزهد، ثم بالوجدانيات والأخلاق، وتزايدت هذه الاهتمامات وكثر المؤمنون الذين يهتمون بهذه الرياضات الروحانية، والمخالفات النفسية وركزوا على تكوين الإرادة المسلمة بالذكر ومخالفة النفس، وتقوية الإرادة، ومجاهدة النفس والهوى. وتزايدت أعداد هؤلاء وصار لهم شيوخهم وطرقهم. ثم طرأ على التصوف هذا الانسراخ الكبير منذ وجود الحلاج وأبي يزيد البسطامي والجيلي والسهورودي المقتول الذي ركز على التصوف الفلسفي الذي تظهر فيه وحدة الوجود والحلول والاتحاد وهي المكاشفة والتجلي والشهود الذي ركز عليه بعد ذلك ورسخ قواعده ابن العربي في الفتوحات المكية وفصوص الحكم

وهناك مدرسة الجعيد والمحاسبي والقشيري والهروي الأنصاري والغزالي،
وعبد القادر الجيلاني، وإبراهيم بن الأدهم، ومعروف الكرخي وعبد الله بن
المبارك، وأحمد بن حنبل، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي وسفيان
الثوري كانت هذه المدرسة الثانية تصوفاً سلفياً وسمي التصوف الشرعي
سماه ابن تيمية وتأثروا بهذا المنهج الصوفي المتقيد بالكتاب والسنة، وأدلو
بدلوهم في هذا المضمار العظيم وعلى رأسهم ابن القيم والشوكاني وابن كثير
وابن تيمية فصار التصوف سلفياً شرعياً محاطاً بالتحديد بالشرعية السمحاء،
بعيداً عن الشطحات الكثيرة، ومعارضاً كل المخالفات لرفع التكاليف،
مفصلة موضحة عقيدة التوحيد كما جاءت في الكتاب والسنة، محاربة
الفلسفة الأرسطوطاليسية والأفلاطونية الحديثة والغنوصية التي ظهرت في
أقوال المتصوفين الفلاسفة وشطحات أبي يزيد البسطامي وحلولية ابن العربي
واستشراق السهروردي المقتول.

لقد أكد هؤلاء العلماء المربون الصوفيون السلفيون التقيد بالشرعية كتاباً
وسنة، وعملت على النهج التربوي الروحي الصوفي بذكر الله عز وجل،
والإشراق الروحي في النفس وجنات القلب، والرياضة الروحية والاعتماد
على عنصر الصفاء الروحي والطهر النفسي، والعمل المستمر لإيجاد المؤمن
بسلوك إسلامي متقيد بالكتاب والسنة، والعمل على النية الصادقة
والإخلاص الكامل، والعمل الدؤوب، والتوكل الصادق، والصبر المستمر
متقيدين بالشرعية لفظاً وعملاً، سلوكاً وذوقاً، وجداً وإشراقاً. وهنا لا بد
لنا من معرفة آراء هؤلاء بأقوالهم منها.

قال السري السقطي: (المتصوف اسم لثلاث معانٍ: وهو الذي لا
يظفء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر

الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الشريعة^(١).

وقال الغزالي في كتابه: ^(٢).

اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين تجعلهما أمام عينيك وتعتبر بها نفسك وغيرك.

فالعلامة الأولى أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على حد توقيفاته، إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها.

والعلامة الثانية قال الهوجيري في الكشف: الشريعة من غير الحقيقة نفاق، والحقيقة من غير الشريعة إحداد، وتداخلهما كتداخل الروح والجسد، إذا فصلت الروح عن الجسد يضحى بعدها جثة هامة، وتتلاشى الروح كما يتلاشى الريح.

وإقرار المسلم بالإسلام يشملها جميعاً فقوله: لا إله إلا الله هو الحقيقة، وقوله محمد رسول الله هو الشريعة فمن أنكر الحقيقة كفر ومن رفض الشريعة تزندق^(٣).

وقال الجنيد: (الطريق مسدود على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ).

وقال أيضاً (من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة).

وجاء في طبقات الصوفية للسلمي ص/ ١٥٩ الخلية ج ١٠ ص/ ٢٥٥.

(١) عوارف المعارف ص/ ٥٣٩.

(٢) ميزان العمل ص/ ٣٩٩.

(٣) كشف المحجوب ص/ ٩٠.

(الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته).

وقال الجنيد في طائفة جعلت الوصول إلى الله قرين التفلت من أحكام الشريعة قال في هؤلاء (نعم وصلوا ولكن إلى سقر).

وقديماً قيل: من تفقه ولم يتصوف يعني اعتنى بطهارة قلبه وأخلص عمله لله فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق وقال أبو يزيد البسطامي في نهاية الطريق، عندما وصل إلى الكمال في الذوق، وقد ترك مرحلة الانجذاب التي تأثر فيها بالكشف، وقال ما قال من أقوال لا تقبل شرعاً في الاتحاد والحلول، وعاد إلى نهاية الطريق وأدلى بدلوه في صحو وكمال فقال: (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة).

وقال سهل التستري: (أصول طريقتنا سبعة، التمسك بالكتاب، والاعتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق)^(١) وقال ابن تيمية في كتابه الصوفية والفقهاء.

(من الصوفيين صدّيقو هذه الأمة)

وقال محمد إقبال: (إن الإسلام عند الصوفيين يأخذ طابعاً من الجمال والكمال، والإنسانية العالية، والأخوة العالمية، لا تجده في إسلام الفقهاء أو المتكلمين).

وقال أيضاً: (إذا عاد إلى القلب الإسلامي نوره القرآني، وخلقه

(١) من أعلام التصوف ص / ٣٨.

المحمدي وعزمه الإلهي، عاد من جديد إلى الحياة ليقودها سعيدة مطمئنة إلى الله).

وقال: (كان الصوفيون عبر التاريخ، نماذج للجلال الخلقى والروحي، ونماذج للكمال التعبدي والإيماني، ونماذج عالية سامقة في أفق العلم والمعرفة) ص/ ٩.

وجاء في مقدمة ابن خلدون في تعريف التصوف^(١).

علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا؛ اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

ولقد قسم المري الروحي الشيخ أحمد كفتارو التصوف إلى قسمين:

التصوف القرآني.

التصوف الرهباني.

وقال (إن التصوف الرهباني هو الذي حطم وجود العالم الإسلامي الفكري والحضاري، وهو الذي أضعف المسلمين فكرياً وحضارياً).

وأما التصوف القرآني فهو التصوف. وقال: «دعونا من كلمة تصوف ولنعد إلى مصطلح القرآن وهو التزكية والتربية الروحية والتربية الحكيمة التي تعطي إسلام الحياة المتكاملة فكراً وروحاً وخلقاً ومعاملة».

(١) ص / ٣٢٨ المطبعة البهية بالقاهرة.

وأما التصوف القرآني بحقائقه الكلية وواقعه فينقسم أيضاً إلى قسمين :

١- التصوف الخلقى .

٢- التصوف التحقيقي .

فالتصوف الخلقى ، هو التصوف الذي يجب أن يتحلى به كل مسلم ولا يستثنى منه أحد وهو التربية الروحية القرآنية الخلقية بترويض النفس لتمثل أخلاق القرآن كاملة .

والتصوف التحقيقي : هو إدراك مقام الإحسان كما جاء في حديث رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل وقال ما الإحسان ؟ قال : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

والإحسان هو أعلى مراتب الإيمان بل هو اليقين الحقيقي وهو الإيمان الشهودي .

ودليل ذلك حديث حارثة عندما سأله الرسول ﷺ كيف أصبحت يا حارثة قال : (كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون وإلى أهل النار كيف يتعاونون) .

وقال له رسول الله ﷺ : (إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك فقال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري) .

فقال له النبي ﷺ (عرفت فالزم^(١)) .

وقال في معرض تحليل التصوف في مجرى الأحداث التاريخية ويشير إلى الصوفيين الفلاسفة : (إن أهل التصوف قعدوا على الأحوال ، ولم يتجاوزوها إلى الشريعة فكان التصوف سبباً في ضياع المسلمين لفترة طويلة من الزمن) .

(١) انظر كثر العمال حديث رقم ٣٦٩٩٠ تحاف السادة المتقين للزيدي ٣٢٧/٩ .

وهذا التصوف الذي سبب هذا الضياع بمعناه الانعزالي وليس بمعناه القرآني الحقيقي .

«والتصوف مرحلة على المسلم أن يقطعها ثم يتجاوزها بعد ذلك إلى الشريعة، وما هو إلا مرحلة لتهديب النفس، وتطهير للقلب، وترويض للنفس ومعالجة لأمرضها وتقوية للإرادة ليقوى على الطاعة» .

وقال وبكل صراحة: «التصوف كلمة نرفضها وتعالوا نرجع إلى مصطلح القرآن والسنة ففي القرآن ذكر الله تعالى، وتزكية النفس، ومجاهدتها ومخالفة الهوى، ومحبة الله وخشيته والإحسان وهو أعلى مراتب الإيمان (الشهودي) فلماذا التمسك بهذه الألفاظ التي ترتبط بمصطلحات، يظن البعض أنها دخيلة على الإسلام. فلنعد إلى القرآن والسنة في تربيئنا الروحية ولنتقيد بما جاء في القرآن من معانٍ روحية سامية كافية في إيجاد الروح المزكاة، والنفس الطاهرة، والقلب الذاكر» .

ولا يمكن أن ننسى ما للتصوف من فضل كبير في إغناء المضمون الروحي للإسلام وإنبات الحياة الروحية الخصبة العميقة الجذور، التي أغنت المسلمين بالمعاني السامية، ودفعت الفكر الإسلامي، وجعلته قادراً على الاستمرار وإشباع النوازع الروحية والوجدانية في الإنسان المسلم .

ولا شك بأنه أعطى إشعاعاً وجدانياً للعلوم الإسلامية التي جمدها السلفية المتقيدة بظواهر النصوص الجامدة على الأحكام والتي لم تعتن بالتزكية النفسية والصلة بالله عز وجل والمحبة لله ولرسوله .

وإن واقع الخلاف بين الصوفيين والسلفيين لا يمكن حله بالهجوم المتبادل بينهم، وإنما بالتوافق على ضوء الكتاب والسنة بعيداً عما نجده في بعض كتب السلفيين من هجوم عنيف على التصوف دون ذكر محاسن القوم، والتشكيك في منهجهم وجمع الأخطاء، مع التضخيم والتهويل حولهم .

وإننا لنعيش عصرًا تزايد فيه الصراع بين الإسلام وأعدائه وهو صراع فكري عقائدي. فلا بد من رأب الصدع بين المسلمين وتقارب الكلمة. فإذا طالبنا الصوفيين بالعودة إلى مصطلحات القرآن والسنة المطهرة دون زيادة أو نقصان، والاعتماد على أسلوب القرآن بمعالجة النفس وتزكيتها وتطهيرها دون الدخول فيما يفرق الكلمة. وقد دعا القرآن النصارى (تعالوا إلى كلمة سواء) فكيف بالمسلمين. فإننا نقول تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم للتقيد بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، وليقف السلفيون أمام آيات التزكية الروحية وآيات القلب وأحاديثه، وآيات ذكر الله عز وجل والإخلاص والإحسان، ولينظروا إلى آيات وأحاديث مخالفة النفس وذم الهوى، ولا يسعني إلا أن أذكر كلمة عمر رضي الله عنه:

(لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها من الخير محملاً).

ومما يدهش قول مؤلف كتاب الفكر الصوفي عبد الرحمن عبد الخالق الذي كانت مقدمته مليئة بالكلمات السطحية الفارغة من الدليل العلمي، المشحونة بالتشاؤم والسلبية.

إذ يقول: (من أخطر ما استخدموا لتحقيق مآربهم هذه ابتكارهم طرق المتصوفة ومذاهب التصوف) فقله حاول أعداء الإسلام محو الإسلام بابتكارهم طرق التصوف، هذا كلام فارغ من الدليل العلمي والبرهان الواقعي، لأن المؤلف، ويا للأسف، يغالط نفسه بعد صفحات ليثبت أن علماء التصوف أمثال الغزالي والجنيد وغيره كانوا يتقيدون بالكتاب والسنة، ثم يا أخي هؤلاء هم أساطين هذا العلم، وهم واضعو أسسه ومناهجه، وبهم انتشر الإسلام في أصقاع العالم جنوباً وشرقاً، فكيف نوازن بين دعواهم أن الصوفية من وضع أعداء الإسلام، ثم كونهم يدعون للتقيد بالكتاب والسنة فما هذا التناقض العجيب!؟

إن النظرة المتطرفة للباحث الملتزم باتجاه معين تجعله ينتقد ويمحس الأمور بنقد حاقده، وليس بفكر المتبصر الذي تستهويه الفكرة ويستجمع مجامع النفس لمعرفة الحقيقة لاستلهاام الصواب .

(فالسلفي يحقد على الصوفيين) (والصوفيون يهزؤون بالسلفيين)، والتطرف في كل من الصوفيين والسلفيين أمر خطير يهدم الأمة، (فالسلفي) يجب عليه أن يمعن النظر في منهاج الصوفيين السلفيين المتقيدين بالكتاب والسنة ليزكي نفسه، وليجاهدها في الله ويعمل لتنفيذ أمر الله تعالى عندما يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(١).

(والصوفي) عليه أن يمحس الدليل ويكون متبعاً لا مبتدعاً باستقامة طاهرة متقيدة بالأسوة الحسنة دون شطط أو مغالاة، ولنضع نصب أعيننا كلمة قالها أحد المخلصين: نتفق فيما نتفق عليه ونعذر بعضنا فيما لا نتفق عليه ثم قال دعوتنا صوفية سلفية ثم إننا سنفرد بحثاً عن صوفية ابن تيمية وابن القيم وهم رواد الفكر السلفي فماذا تقول يا أخي السلفي أمام إشراقات الروح وعنايات ابن تيمية في ذكر الله تعالى وتوضيح معنى الفناء بالله. وأختم حديثي عن حكمة الشيخ أحمد كفتارو في هذا العصر حول التقارب بين الصوفية والسلفية. فهو عالم حافظ لكتاب الله عز وجل، تربي وتزكت روحه في مدرسة صوفية على يد كبار علماء التصوف، فهو يركز على التربية الروحية بأعلى أشواقها. متقيدة بالكتاب والسنة داعياً إلى نبذ فكرة التعصب للأسماء والمسميات التي توهم الفرقة وتمزق الصنفوف، فلا بد من الرجوع إلى مصطلحات القرآن وما فيه من تزكية للنفس، وتطهير للقلب،

(١) سورة البقرة: ١٥٢ .

وذكر كثير الله تعالى، فهي دعوة خالصة من الشوائب، وفيها إذكاء لروح اللقاء، ورفع الحواجز اللفظية.

فالرسول عليه الصلاة والسلام عاش في غار حراء متبتلاً يجمع طاقاته، لتحمل الدعوة الإسلامية، بما فيها من صبر وصمود وجلد. وأنى للداعي أن يكون داعياً إن لم تعرج روحه في صلاة خاشعة، وذكر وإنابة وخشوع وتضرع وبكاء وطهر وصفاء. وكان يردد دائماً قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

وآخر أقوال الشيخ الدكتور أحمد كفتارو في التربية الروحية:

(التربية الروحية هي قوة تجميع النفس لتولد طاقة الفكر العامل لنصرة الإسلام).

(لقد حُجِبَ المسلمون والعلماء خاصة بفقهِ مستنبط، ونسوا الأصول وهو كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولذا لا بد لنا من الرجوع إلى القرآن كمصدر للاستنباط في هذا العصر ولتجميع الكلمة ولنبد الخلافات في المسائل المختلف عليها والتركيز على جوهر القرآن وقراءته قراءة متدبرة لنغوص في معانيه الكبرى لتحقيق الغاية الأساسية وهي العبودية بأعلى معانيها).

* * *

السلفية

obeikandi.com

التلغية

تعريفها: هي الدعوة للعودة بالإسلام إلى ما كان عليه من الصفاء الأول المعتمد على الكتاب والسنة وذلك بمحاربة البدعة وتخليص المسلمين من الخرافات والشوائب التي دخلت عليهم باسم الإسلام.

البدعة: عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه^(١).

حقائق ووقائع

الإسلام دين الله عز وجل قد بين بالكتاب والسنة، وقام العلماء والمصلحون بشرحه وتبينه للمسلمين. وفي خضم تراكم التيارات المضادة للإسلام ومد رواسب الجاهلية القديمة والحديثة ومن طول الأمد دخلت بعض العقائد والأفكار والقصص والخرافات على المجتمع الإسلامي وحسبوها من الإسلام؛ وهي في حقيقتها ليست من الإسلام في شيء؛ فنحن علينا أن نأخذ الإسلام صافياً نقياً كما أنزل، وننبذ جميع المداخلات والشوائب التي ولجت على الفكر الإسلامي، والتي لا تعتمد على النصوص

(١) الاعتصام: ج/١ ص/٣٠.

الثابتة الصحيحة. ويجب أن يسعنا ما وسع أصحاب النبي ﷺ. والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه كانوا أشد منا حباً لله، وأعظم درجة في التقوى. فكل زيادة وكل بدعة وكل شائبة تعارض نصاً قطعياً من كتاب أو سنة، وكل عبادة لم يعملها الرسول ﷺ ولا صحبه الكرام فهي من البدع التي ليست من الإسلام في شيء والسلفية حركة انتشرت في هذا العصر وهي امتداد للعصور الماضية، كان يرأسها شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله، وتلميذه ابن القيم والشيخ الجليل ابن الجوزي، والشوكاني، وابن حنبل، وغيرهم وفي خضم هذا الصراع بين السلفية والصوفية لا بد أن نبين أن الحرب الدائرة بين الصوفيين والسلفيين هي حرب بين الصوفية الفلسفية، التي اعتمدت على الفلسفة اليونانية والهندوكية والفارسية والتي لم تركز على الكتاب والسنة ولم تتقيد بالتربية الروحية القرآنية والنبوية. وهذا ما أثبتته كبار المرابين الروحانيين في الإسلام الذين هاجموا كل الشذوذ عن الكتاب والسنة، وحاربوا وحدة الوجود، والحلول والاتحاد وكل الألفاظ التي تخالف النصوص القطعية الثابتة، وأمثال ذلك ما قاله الغزالي في معرض الهجوم على التصوف الفلسفي المنحرف.

«أمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له»^(١).

ويعترض على القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد قائلاً:

(كيف يتصور أن لا يشاهد (الصوفي الفيلسوف) إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً)^(٢).

(١) إحياء علوم الدين ج/٤ ص/٢٧٩.

(٢) الإحياء ج/٤ ص/٢١٢.

وقد قال أبو الفيض المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء :

«فتصوف الحلاج ومن جراه قد جاوز دائرة الكتاب والسنة، في حين أن تصوف الغزالي ومثله أهل التصوف الإسلامي المحض الذي يلتزم مع كل تعاليم الدين»^(١) ثم أردف قائلاً (ففكرة الحلول والاتحاد مستحيلتان في التصوف الإسلامي الصحيح)^(٢).

ويستخلص نتيجة رائدة في قوله: (إن المتبع لحياة (الحلاج ومؤلفات السهروردي وابن عربي يرى أنهم تأثروا بفلسفة المسلمين الذين أخذوا عن الفلسفة الأفلاطونية القديمة والأفلاطونية الحديثة والأرسطوطاليسية، ومثل هذا التصوف لا يعتبر إسلامياً قط من حيث إن التصوف الإسلامي الخالص دائماً مستمد من الأعلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولا شيء غيرهما)^(٣).

وقال أحد المتصوفين المتقيدين بالكتاب والسنة وهو ذو النون (علامة العارف ثلاثة: لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقضه عليه ظاهر من الشرع، ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أسرار محارم الله)^(٤).

وما أروع الصراحة في العارفين المتمكنين من معرفة الحقيقة إذ يقولون: (فدع الشطح والتزيد ولا تقل مع الحلاج ولا مع السهروردي المقتول ولا مع محي الدين بن العربي ولا مع ابن الفارض في مثل أقوالهم، واعلم أن ضوء المصباح ليس نور المصباح نفسه بل هو قبس من نوره وأثر من آثاره، وأن كل هذه شطحات لا يوافق عليها الشرع وبالتالي لا يوافق عليها التصوف

(١) جمهرة الأولياء ص/ ٢٨٤.

(٢) ص/ ٢٩٠.

(٣) ص/ ٢٩٢.

(٤) الرسالة القشيرية ص/ ١٤٣.

الإسلامي الصحيح ولا شيوخ رجاله^(١).

ومن أروع التفصيلات في هذا الباب حول موضوع الفناء ما أوضحه ابن تيمية في مجموعة الرسائل والمسائل^(٢).

وقد وصف ابن تيمية فناء البسطامي بأنه فناء قاصر فيقول: «إن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء القاصر سكر وغيبة السوى، والسكر وجد بلا تمييز فقد يقول في تلك الحال سبحاني أو: ما في الجبة إلا الله أو نحو ذلك من الكلمات التي تُؤثر عن أبي يزيد البسطامي وكلمات السكران تطوى ولا تروى ولا تؤدي» ومما يؤيد كلام ابن تيمية قول الجنيد: (إن أبا يزيد رحمه الله مع عظم حاله وعلو إشارته، لم يخرج من حال البداية، ولم أسمع منه كلمة تدل على الكمال والنهاية)^(٣).

وينتقد القشيري هؤلاء المتصوفة الذين تكلموا بلا ورع، وابتدعوا في أقوالهم، وهاجم الشطح الصوفي وكفر أهل وحدة الوجود والحلول والاتحاد، لأنهم ابتعدوا عن التوحيد فقال: (وكل توحيد لا يصححه الكتاب والسنة فهو تلحيد لا توحيد، وكل معرفة لا يقارنها ورع واستقامة فهي مخرفة لا معرفة)^(٤).

وقد هاجم الهروي أهل التصوف المنحرف وسماهم بأهل الشطح الفاحش، وبين أن الشطح سببه عدم السكينة في القلب وأكد أن الصوفي في حالة الرضا يستقر قلبه فيمتنع عن كل الشطحات وأسبابها. ويحافظ على مقام العبودية فلا يتعدها.

(١) ص/ ٢٩٥ جبهة الأولياء.

(٢) ج/ ١ ص/ ١٦٨.

(٣) اللمع ص/ ٤٧٩.

(٤) الرسالة القشيرية ص/ ٣.

وأما الغزالي فقد قال: (الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر زائفة وفيها عبارات هائبة، وليس وراءها طائل، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها، بل يصدرها عن خبل في عقله وتشويش في خياله لقلّة إحاطته بمعاني الكلام، ولعدم ممارسته لعلم الشريعة، وعدم قدرته على التعبير ولا فائدة من هذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان).

وركّز الغزالي على الاتّباع للأنبياء في هذا الخضم من البحث الخطير قال: «ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيحاء على سبيل التمثيل والإجمال علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال. والعلماء ورثة الأنبياء فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسّي والاقتداء»^(١).

ولذلك أعطى دليلاً ملموساً بأنه يفضّل التعبير عما يتوهم أنه اتحاد أو حلول بلفظ القرب المشار إليه في الحديث القدسي «ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به»^(٢) «فهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه» وهذه هي التربية الروحية القرآنية عند الصوفيين الحقيقيين الذين ساروا على هدي الكتاب والسنة.

والسلفية الواعية لا تنزع المضمون الروحي الثابت توافره في الكتاب والسنة، بل تؤيده وتناصره وإن ابن تيمية وابن القيم والهروي والجيلاني

(١) الإحياء ج/١ ص/٤.

(٢) متفق عليه.

وابن رجب هم رواد التربية الروحية السلفية ولا ننسى سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وهم علماء حقيقيون ويقول الشاطبي في الاعتصام^(١).

«والعلماء الحقيقيون لا يتدعون وإنما يتدع من ادعى لنفسه العلم وليس كذلك» وعلى رغم خوض ابن تيمية وابن القيم في تحديد المعاني الوجدانية والروحانية في الإسلام، وإبراز المقومات السلوكية في التربية الروحية، فقد عمد الكثير من السلفيين إلى صب جام غضبهم على أصحابها وذهبوا إلى إنكار التصوف وكل اتجاه صوفي حتى لو نقل عن المنتسبين إليهم والمتقيدين بمذهبهم.

وعلى رغم هذا العداء من السلفيين المحدثين للتصوف لا يمنعنا أن نذكر ابن تيمية وآراءه السديدة في التصوف المشروع. وهذه تسميته الخاصة، وقد استخدم أساليبهم، وتكلم في الحب الإلهي، والزهد، والعبادات وذكر الفناء، وقسمه إلى أنواع، مستدلاً بالآيات والأحاديث؛ ولم يتشبث بالبحوث العلمية الجافة، بل أكد التذوق الروحي للسالكين في طريق الله وقال: (وهذه الأمور لها أسرار وحقائق لا يشهدها إلا أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيقانية)^(٢).

وقال (من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدي الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة)^(٣).

وركّز ابن تيمية في بحوثه، وخاصة في السلوك، على تسمية هؤلاء الصوفيين بصوفية الملاحدة الفلاسفة، وبعضهم ضلال العباد وبعضهم إلى

(١) الاعتصام ج/٣ ص/١٣٦.

(٢) ابن تيمية مجموعة الرسائل الكبرى ج/٢ ص/٣٢٤.

(٣) السلوك ص/٣٦٨.

التصوف المشروع، وصح عنده أن أصحاب التصوف الشرعي مجتهدون في طاعة الله، وقسمهم إلى طوائف ثلاث: صوفية الحقائق وهم الذين مر ذكرهم من المتبعين للشريعة المقتفين لخطى الأوائل، وصوفية الأرزاق وهم الذين وُقفت عليهم الوقوف كالتكايا، وصوفية الرسم وهم المقتصرون على النسبة فهمهم اللباس والآداب الوصفية ونحو ذلك»^(١).

ولا بد لنا من معرفة آراء الصوفيين في دحضهم لآراء الصوفيين الفلاسفة الحلوليين قال الحلاج: (مذهبنا إفراد القديم عن المحدث)^(٢).

وأكد أن طريق الخيرات كلها مفتوح لمن اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته: ^(٣).

«إن المجاهدات ضرورية للوصول إلى الحق، ولكن يشترط أداء الفروض والطاعات اقتداء بالسنة دون البدعة»^(٤).

وقد قدم الغزالي نظريات نقدية للصوفية المخالفين للمنهج السليم ومنهم أصحاب الشطحات مثل الحلاج والبسطامي قائلاً: (أما الاستناد إلى مثل هذه العبارات الأنفة الذكر أي الشطحات الصوفية فإن ضرره عظيم ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان).

وهاجم كل من قال بسقوط التكليف قائلاً: «من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة»^(٥).

(١) رسالة الصوفية والفقراء ص/ ٣٢.

(٢) ابن العماد الشنرات ج/ ٢ ص/ ٢٢٨.

(٣) الحلية ج/ ١٠ ص/ ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق ص/ ٢٦٣.

(٥) الإحياء ج/ ١ ص/ ٦١.

ويقند أصناف المتصوفة ويقول: (المتصوفة، وما أغلب الغرور عليهم، والمغتربون منهم فرق كثيرة، ويركز مرة ثانية على الحلول: (اعتقاده خطأ محض وسفاهة صرفه)^(١).

ويقول ابن تيمية مؤيداً الطريق الذي سار عليه الغزالي للوصول إلى الحقيقة:

(إن الغزالي قد سلك الطريق الصحيح في إثبات وجود الله، لأنه نحى هذه المناهج جانباً) ورأى أن الصوفية «يظهرون قلوبهم مما سوى الله، ويملؤونها بذكر الله فيحققون بذلك الإيمان مجملًا، ولكن يشترط لكي تصبح المعرفة عند الصوفي مفضلة أن يكملها بالآثار النبوية)^(٢).

وقد أثنى عليه ابن تيمية بأنه «اتصف بكثرة الإحسان والعلم الصحيح والقصد الحسن)^(٣).

ونحن نؤيد كلام ابن تيمية في قوله: «فمن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله فيه متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر»^(٤).

وإننا نلمح التربية الروحية ساطعة مضيئة في قوله إلى تلميذه ابن القيم «ما يصنع أعدائي بي؟

أنا جنتي وبستاني في صدري وإن رحمت فهي معي لا تفارقني إن حسبي

(١) معراج السالكين ص/٧١.

(٢) توحيد الربوبية ص/٢٤ ابن تيمية.

(٣) ابن تيمية ص/٥٥ نقض المنطق.

(٤) الفرقان ابن تيمية ص/١١٩.

خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة»^(١).

«وإن ابن تيمية أعلن نقده العنيف لابن عربي ولما ابتدئته فرق الصوفية من ألوان العبادات والعقائد والأذكار المخالفة للشريعة، أو آداب لا تتفق فيما يرى مع مقتضيات الحياة الفردية والاجتماعية. ولكنه لم ينكر جملة التصوف ولم يحث المؤمنين على الابتعاد عنه»^(٢).

ولهذا اتخذ ابن تيمية من الصوفية المتابعين للشرع أصدقاء له، وأعلن مودته لهم ومحبتهم إياهم منهم الشيخ الواسطي المتوفى (٧١١ هـ)، الذي أثنى عليه ابن تيمية وسماه جنيد وقته.

ويصرح في مواضع كثيرة بأن الصوفية حق حيث يثمر الإيمان المجمل، ولكنه يضع شرطاً أساساً للإيمان المعضل وهو اقتران ذلك بالعلم النبوي^(٣).

ويرى التصوف حقاً بشكل صريح في قوله: كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرهم بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك^(٤).

وقد قسم ابن تيمية النفس إلى ثلاثة:

١- اللوامة وهي التي تذنب وتتوب وتلوم صاحبها على الذنوب، وتلومها يعني تردها بين الخير والشر.

٢- الأمانة بالسوء وهي التي يغلب عليها اتباع الهوى بسبب الذنوب.

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص/٦٢.

(٢) لاوست النشأة العلمية عند ابن تيمية ص/٨٤١-٨٤٢.

(٣) مجموعة فتاوي ج/٢ ص/٢٤.

(٤) مجموع فتاوي ص/٧٧.

٣- المطمئنة وهي النفس التي صار لها حب الخيرات والحسنات مع بغض الشر والسيئات خلقاً وعادة وملكة من دوام فعلها للخير وتركها للشر.

ويدلي بأرائه في كل صراحة وإقرار بأن العلم الظاهر لا ينفع بدون الأمور الباطنة ويقول: (أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال وإن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها)^(١).

ولقد تحدث ابن تيمية عن النفس الصافية، التي فيها رقة الرياضة، فتنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذاباً تاماً، وبين مكانة القلب، فإن لها من التأثير أعظم ما للأبدان، ويختلف هذا التأثير صلاحاً أو فساداً حسب طبيعتها^(٢).

وإن ابن تيمية يظهر تأثره بالتربية الصوفية ويقر ويعترف ويقسم الفناء إلى ثلاث درجات.

١- الفناء عن إرادة ما سوى الله «بحيث لا يجب ولا يعبد إلا الله كما لا يتوكل إلا عليه عز وجلّ فكمال العبد أن لا يريد ولا يجب ولا يرضى إلا ما أَرَادَهُ اللهُ وَرَضِيَهُ وَأَحَبَّهُ»^(٣).

٢- الفناء عن شهود السوى وسببه «هو انجذاب كثير من السالكون إلى ذكر الله وعبادته ومحبه فلا يشهدون ولا يشعرون بغير الله بحيث يتفق مع حالة أم موسى عليه السلام حيث فرغ قلبها إلا من ذكر موسى».

قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ قُورَاقُومُوسَىٰ قَدْرِيًّا ۚ إِنَّ كَادَتْ لَتَنْبُذِي بِهِ لَوْلَا

(١) ابن تيمية السلوك ص/٩.

(٢) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص/٢٠.

(٣) ابن تيمية السلوك ص/٢١٨.

أَنْ رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا ﴿١﴾. وهكذا يستغرق صاحب الفناء من هذه الدرجة بدافع الحب أو الخوف أو الطلب، فإذا زاد في انجذاب قلبه واستغراقه (أصبح غائبا بمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته) حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى المنفرد بالخلود والبقاء.

٣- والنوع الثالث من الفناء الذي يرى الشيخ ابن تيمية بأن أصحابه هم الذين وقعوا في الحلول والاتحاد وهو حال فيه شطط.

وفي نهاية المطاف لا بد لنا من الإشارة إلى أن علماء التصوف الذين عاشوا حالة روحية فيها شيء من الشهود، ما هم إلا أناس عاشوا مرحلة ونطقوا عنها ثم اعتذروا عنها وهذه الحالات الروحية لها شواهد قرآنية ومنها قصة الخضر مع موسى عليه السلام وغيرها.

* * *

(١) سورة القصص: ١٠.